بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه، وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين، رب اغفر لنا، ولشيخنا وللحاضرين، والسامعين يا رب العالمين، أما بعد:

فيقول المفسر -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خَاشِعِينَ} [سورة الأنبياء:٨٩-٩٠].

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً، وقد تقدمت القصة مبسوطة في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضاً، وههنا أخصر منهما {إِذْ نَادَى رَبَّهُ} **أي: خفية عن قومه** {رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً} **أي: لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس** {وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} **دعاء وثناء مناسب للمسألة، قال الله تعالى:** {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} **أي: امرأته، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: كانت عاقراً لا تلد فولدت.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فنسأل الله -تبارك وتعالى- أن يبارك لنا ولكم في القرآن العظيم، وأن يجعله حجة لنا لا حجة علينا، وأن يرزقنا وإياكم العلم بالقرآن، والعمل به.

الله -تبارك وتعالى- ذكر جملة من الأنبياء كإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وإسحاق ويعقوب ونوح، وإسماعيل وأيوب وذي النون وذي الكفل وجماعة من أنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام-، وذكر في جملتهم زكريا فقال: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ} أي: واذكر إذ نادى ربه، وقصة زكريا -عليه السلام- ذكرت في سورة آل عمران، وفي سورة مريم، والله -عز وجل- حينما يذكر ذلك متكرراً في القرآن فإنما يذكر من كل قصة ما يناسب في ذلك المقام، فليس ذلك من التكرار المحض، إذ لا يوجد في القرآن من أوله إلى آخره تكرار محض، فيذكر من أخبارهم وقصصهم في كل مقام ما يناسب ذلك المقام، فإذا كان المقام يذكر فيه الله -عز وجل- بأسه وشدته وبطشه بالظالمين فإنه يذكر من قصص الأنبياء ما يناسب ذلك، حيث يبين ما فعل بأعدائهم، وإذا كان المقام مقام بيان منزلة هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فإنه يذكر من ذلك ما يناسبه، والمقصود أن الله ذكر خبر زكريا -عليه الصلاة والسلام- هنا حيث قال: {رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً} يقول الحافظ هنا: "**لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس** {وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ}"، كما قال الله -عز وجل- عنه في الموضع الآخر: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا} [سورة مريم:٥]، وذكرنا هناك أن المراد بذلك أنه قصد الوراثة في الدين، خاف أن يضيع أمر الله -عز وجل- من بعده فلا يوجد من يقوم به على الوجه المطلوب، {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ}، هذا الذي عليه المحققون في تفسير هذه الآية، خلافاً لمن

قال: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي} إنه أراد أن يُوجَد له وارث للمال، فهذا لا يكون من نبي من أنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام-، بل لا يكون ذلك من آحاد الناس من كرامهم وأشرافهم، كيف يدعو ربه أن يرزق الولد من أجل أن لا يورث من غير أولاده؟، فإن هذا لا يليق بمنزلة نبي كريم من أنبياء الله -عز وجل-، إنما قصد بذلك أن يوجد من عقبه من يقوم بأمر الله -عز وجل-، لما قال الله -عز وجل- لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [سورة البقرة:١٢٤] يعني معلماً للخير إماماً في الخير، يأتم الناس بك، يقتدون بك وبفعالك الجميلة، {قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي} أخذته الشفقة على أولاده وذريته، {وَمِن ذُرِّيَّتِي} يعني اجعل أئمة منهم، {قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، فعهد الله -عز وجل- المقصود به هنا الإمامة بالدين، وليس في الدنيا، {لَا يَنَالُ عَهْدِي} أي: لا يكونون أئمة في الدين يقتدى بهم، ولذلك تشاهدون أن من ينحرف عن الطريق ممن ينتسب إلى الدين والعلم فإن ضرر ذلك يعود عليه هو، ولا يعود على الآخرين، وإن عاد عليهم عوداً مؤقتاً إلا أنه في الحقيقة هو الذي يهلك نفسه، فإن مثل هذا لا يجعل الله -عز وجل- له القبول، ولا ينتفع الناس بكلامه، ويبقى دين الله -عز وجل- محفوظاً، وانظروا في التاريخ ذكر الله خبر بلعام، وفي هذه الأمة وفي تاريخها في امتدادها الطويل خلقٌ لا يحصيهم إلا الله -عز وجل- ممن غيروا وبدلوا ممن ينتسب إلى العلم، أو وقع في البدع والانحرافات الاعتقادية، أو في الانحرافات السلوكية، وبقي دين الله -عز وجل- محفوظاً، أما هؤلاء فيسقطون ويضمحلون، ولا يبقى لهم ذكر، ومن قلب نظره عرف ذلك بعين بصيرته، فنسأل الله -عز وجل- أن يثبتنا وإياكم على الحق.

والمقصود أنه قال: {رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا} لا ولد لي، فطلب الولد؛ لأنه يريد أن يرثه من عقبه من يقوم بدين الله -جل جلاله-، وزكريا -صلى الله عليه وسلم- نبي، وبلغ هذه السن ولم يرزق بالولد فدل ذلك على أن عدم حصول الولد ليس بنقص في الإنسان؛ وذلك أن الله -عز وجل- يختار الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من بين قومهم فهم أكملهم من كل وجه، لا يختار من بهم عاهات ونقائص تزري بهم؛ لئلا ينتقصهم أقوامهم بسببها، فـ {إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} يعني: خير من يبقى بعد كل من يموت، فإن لم ترزقني الولد فإني أعلم أنك لا تضيع دينك، وأنك حافظ الدين، والله -عز وجل- يقول في هذه الأمة وفي كتابها: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [سورة الحجر:٩] يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-:

والله لولا اللهُ حافظ دينه *** لتهدّمت منه قوى الأركان

من كثرة ما مر على هذا الدين من المصائب والكيد والتضليل والانحرافات، في أواخر عهد الصحابة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-، ومع ذلك بقي الحق محفوظاً ثابتاً، فالخوف ليس على الدين، وإنما الخوف علينا، والسعيد من سار في ركابه، وكما قال بعض المحبين لما توفي شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كتب وصية جميلة وطبعت، يوصي بها تلاميذ شيخ الإسلام بالعناية، وكان مما قال لهم: والله إنه سيأتي رجال وهم في أصلاب آبائهم يحملون هذا العلم وينتفعون به، وانظروا كيف صدقت هذه الكلمة، فلا زال الناس ينتفعون بكتبه غاية الانتفاع.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} قال: "**أي امرأته**"، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: كانت عاقراً لا تلد فولدت، هذا هو المشهور، {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} بمعنى أنها صارت مهيأة للولد، ولكن ذكر

بعض أهل العلم وهو مروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} قال: كان في لسانها بعض الطول، وبعضهم يعبر يقول: كان في خُلقها شيء، يعني كانت صعبة الأخلاق، {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ}، فالله -تبارك وتعالى- هنا لم يذكر شيئاً محدداً في الإصلاح، يعني هذا الذي يسمونه بحذف المتعلق {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ}، ومن أهل العلم من حمله على الولادة، يعني صارت مهيأة للولد، باعتبار أن المقام مقام ذكر هذه الآية، والمعجزة بأن الله -عز وجل- جعلها تلد بعد أن كانت عاقراً، وقد بلغت أيضاً سناً كبيرة، وهذا وجه حسن في التفسير، وهي قرينة تدل عليه، وأولى من القول بأن المراد بذلك {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} أي: أنه في خُلقها بعض الشيء فأصلحناه، فهذا لا يدل عليه السياق، وقد يقال: إنه يبعد أن تكون زوجة نبي بهذه المثابة -سيئة الخلق-، وهذا لا إشكال فيه، ومن هؤلاء -ككبير المفسرين أبي جعفر بن جرير -رحمه الله- من قال بأن المراد {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} الله لم يحدد شيئاً فيحمل ذلك على الجميع، أصلحها له من كل وجه، فجعلها صالحة للولادة، وجعلها صالحة في أخلاقها مهذبة في سلوكها ولسانها، فهذا جمع بين هذه الأقوال، وهذه طريقة ابن جرير -رحمه الله- في التفسير، إذا وُجدت أقوال تحتملها الآية ولم يوجد دليل يدل على بعضها فإنه يحمل الآية على الجميع.

قال -رحمه الله-: وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} أي: في عمل القربات وفعل الطاعات {وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً} قال الثوري: رغباً فيما عندنا ورهبا مما عندنا.

قوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا} يحتمل أن يعود للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين ذُكروا وهم كثير جداً، فأثنى الله -عز وجل- عليهم بقوله: {إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} أي: يبادرون فيها، وذلك يشمل كل ألوان المسارعة، ففي الصلاة يسارعون في أول وقتها، هم سباقون في ألوان العبادات في الصدقات، وقراءة الكتاب الذي أنزله الله -عز وجل-، ونحو ذلك، داود -عليه الصلاة والسلام- كان قد خفف عليه قراءة الزبور حتى كان يقرأ الزبور في الوقت الذي يسرج له فرسه، في هذا الوقت اليسير، فيحتمل أن الضمير في "إنهم" يرجع إلى جميع الأنبياء الذين ذكروا قبله، ويحتمل أنه يعود إلى زكريا -صلى الله عليه وسلم- وأهل بيته، زكريا وزوجه ويحيى، فالآية تحتمل هذا وهذا، وممن رجح أن المقصود بذلك زكريا وزوجه ويحيى -عليهم الصلاة والسلام- أبو جعفر بن جرير الطبري -رحمه الله-، قال: المراد هم هؤلاء، والآية تحتمل المعنيين، ولا شك أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- جميعاً ينطبق عليهم هذا الوصف تمام الانطباق.

والطريقة التي نمشي عليها عادة في هذا التفسير لا نتوسع كثيراً، وإنما يُذكر مأخذ القول، وتوجه الأقوال التي تذكر، وتبين بعض الجوانب التي يحتاج إليها فقط، دون توسع في ذكر الفوائد والمعاني، فلا نخرج عن طريقة ابن كثير -رحمه الله-، وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ} "إنّ" هذه تدل على التعليل، والله -تبارك وتعالى- ذكر أنه استجاب له، قال: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} فيؤخذ منه أن المسارعة في الخيرات، والدعاء في القرآن إذا ذكر فإنه يشمل نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة، ولهذا يوجد من أهل العلم من فسر الدعاء هنا بدعاء العبادة، فيكون المقصود يعبدوننا خوفاً وطمعاً، والآية تشمل هذا وهذا، {وَيَدْعُونَنَا} أي: يسألون الله -تبارك وتعالى- خوفاً وطمعاً،

خائفين وراجين، وأيضاً يدعوننا خوفاً وطمعاً، خوفاً ورهباً، فدل ذلك على أن عبادة الله -عز وجل- يدخل فيها دعاء الله -عز وجل- بالمسألة، فلا شك أنه من أجل العبادات وأشرفها، فيدل ذلك على أن المسارعة في الخيرات والعبادة والسؤال والدعاء سبب للولد، وسبب أيضاً لإصلاح الحال، وإقامة الأخلاق، وتزكية النفوس، وما إلى ذلك من المعاني، {وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}.

{وَكَانُواْ لَنَا خَاشِعِينَ} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي مصدقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: مؤمنين حقاً، وقال أبو العالية: خائفين، وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً، وعن مجاهد أيضاً: {خَاشِعِينَ} أي: متواضعين، وقال الحسن وقتادة والضحاك: خاشعين أي متذللين لله -عز وجل-، وكل هذه الأقوال متقاربة.

كل هذه الأقوال متقاربة؛ لأن السلف -رضي الله تعالى عنهم- يفسرون اللفظة بما يقرب معناها، فتارة يفسرون ذلك بلازمه، يفسرون اللفظ بلازمه، وتارة يذكرون سبب الشيء، وما يوصل إليه، وتارة يفسرونه بجزء معناه، وتارة يفسرونه بالمثال، وتارة يفسرونه بلفظة قريبة وما إلى ذلك، لا يدققون ولا ينقرون، فهذه الألفاظ المذكورة هي لها نوع تعلق بالخشوع، لكنها لا تفسره على الحقيقة، يعني بتفسير مطابق، فالخشوع في كلام العرب يدل على التطامن والتواضع، الأرض الخاشعة {تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} [سورة فصلت:٣٩] ترتفع، يعني الأرض إذا لم يأتها الماء فهي هامدة، فإذا نزل عليها المطر ارتفعت إما ارتفعت نفس الأرض تشقق النبات في داخلها فترتفع تنتفخ بالنبات، أو أن المقصود ارتفعت بالنباتات التي تخرج عليها، بعد أن كانت -كما تشاهدون- جدباء فهي منخفضة خاشعة، فالخشوع يعني التطامن، الإنسان الخاشع هو الإنسان المنكسر المتذلل لعظمة الله -عز وجل-، المتطامن له -تبارك وتعالى-، فهو يدل على هذا المعنى، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إن الخشوع معنىً يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار، فهو مجموع هذه الأشياء، لا نستطيع أن نفسر لفظة الخشوع بلفظة مكافئة لها تماماً تؤدي معناها، فلا يقال: الخشوع هو التطامن فقط، أو الخشوع هو التواضع فقط، وإنما ذلك من مكملاته، ومن أبعاضه وأجزائه، والحافظ ابن حجر -رحمه الله- يقول: إن هذا الخشوع يكون فعل القلب كالخشية، ويكون من فعل البدن كالسكون، ومن أهل العلم من يقول: لابد من الأمرين، وهذا صحيح، فالخشوع أصله في القلب، فإذا انكسر القلب ظهر أثر ذلك على الجوارح ولابد، ولا يمكن أن يكون القلب خاشعاً والبدن غير خاشع، لكن يمكن أن يوجد الخشوع في البدن من غير خشوع القلب، وهذا هو الذي يقال له: خشوع النفاق، والحافظ ابن رجب -رحمه الله- يقول: إن أصله هو لين القلب ورقته وسكونه، وخضوعه، وانكساره، وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء لأنها تابعة له، وهذا صحيح، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله))[1]، ومن أراد الخشوع فعليه بالجوع، وأحياناً بعض القلوب تحتاج إلى مدة طويلة؛ ولهذا بعض الناس قد لا يجد الخشوع إذا جاهد وحاول إلا بعدما يعتكف في أواخر العشر الأواخر، يعني يجد

---

١ - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، برقم (٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، برقم (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير -رضي الله عنه.

الخشوع في أواخر العشر الأواخر، فيسمع الخطبة ويبكي، يسمع القرآن ويبكي، يسمع من الإذاعة ويبكي، يمر بالمكان ويسمع القارئ يقرأ ويبكي، هذا موجود، من الناس من يكون هذا ديدناً له، ومن الناس من لا يعرف هذا إلا مرة في السنة أو مرتين، ومن الناس من لا يعرف هذا أبداً، -نسأل الله العافية-، وابن القيم -رحمه الله- يقول: القلب الذي لا يلين بمواعظ القرآن حري به أن يلين في كير جهنم، فجهنم موكولة بإذابة القلوب القاسية الصلبة، فهذه القلوب تحتاج إلى تليين، والذي يقسيها هو كثرة الذنوب مع كثرة الفضول، حتى من المباح {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم} [سورة المطففين:١٤] فلا تدخلها المواعظ، ولا ينتفع بالقرآن، يقرأ القرآن من أوله إلى آخره، ولا ينتفع به، وكثرة الفضول، فضول النوم، ينام الإنسان نوماً بعد نوم حتى يصدع رأسه، يقوم قاسي القلب هامد الهمة، وفضول المخالطة مع الناس، فلا يخشع وهو جالس طول وقته يسهر مع أصحابه ويذهب ويجيء، من استراحة، إلى خيمة إلى مجلس إلى منتدى، وإذا رجع البيت تولته القنوات، لا يوجد مجال للخشوع، ثم ينام، وهكذا فضول الضحك، فضول الكلام يتكلم كثيراً، فكل هذه الأشياء مع فضول الأكل تفسد قلب الإنسان، الإنسان معنيٌّ بإصلاح قلبه، والله -عز وجل- لا ينجو عنده إلا من جاء بقلب سليم، فنسأل الله -عز وجل- أن يصلح قلوبنا.

إذا لم يعظ الناس من هو مذنب *** فمن يعظ الناس بعد محمد

وإن كان الإنسان يخاف حينما يسمع قوله -تبارك وتعالى-: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة البقرة:٤٤]، وفي قوله -تبارك وتعالى- في: {لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} [سورة الصف:٢]، وحديث: ((يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتابه))[٢]، الشاهد أنه حينما يسأله أهل النار يقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه، نسأل الله -عز وجل- أن يصلح الأحوال والقلوب والأعمال، فهذا معنى الخشوع، إذاً هو انكسار القلب ولينه ورقته وخضوعه، وهو طمأنينة في القلب وفي البدن، بتواضع البدن، واجتماع ذلك يقال له: الخشوع.

{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء:٩١].

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى -عليهما السلام- مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى -عليهما السلام-، فيذكر أولاً قصة زكريا ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر، هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم، وههنا ذكر قصة زكريا ثم أتبعها بقصة مريم بقوله: {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} يعني: مريم -عليها السلام-، كما قال في سورة التحريم: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} [سورة التحريم:١٢].

وقوله: {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ} أي: دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، وهذا كقوله: {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ}.

---

٢ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٩٤)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، برقم (٢٩٨٩)، من حديث أسامة بن زيد -رضي الله عنه.

{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا} ذكر الله -عز وجل- قصة مريم -رحمها الله- في سياق ذكر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهي ليست بنبية، ولكن لما ذكر الله خبر زكريا كيف أن الله رزقه بالولد من امرأة كبيرة عاقر، الأمر الذي يدل على قدرته -تبارك وتعالى- على كل شيء، ذكر خبر مريم بعده، ففيه نوع شبه به، بل هو أعجب حيث إن الله -عز وجل- جاء بالولد منها، رزقها بالولد، وهي ليست بذات زوج، وأيضاً فإن خبر مريم مرتبط بخبر ابنها -صلى الله عليه وسلم- عيسى، فهو من جملة هؤلاء الأنبياء الكرام -عليهم الصلاة والسلام-، وأضاف النفخ إلى نفسه -تبارك وتعالى-؛ لأنه بأمره كما يقول الملك: بنينا كذا، وفعلنا كذا، وعملنا كذا، من أجل أنه هو الذي أمر بذلك، وإن لم يباشره بنفسه، ونقول مثلاً: عمر -رضي الله تعالى عنه- هو الذي بنى الكوفة وهو الذي بنى البصرة، ولم يباشر ذلك بنفسه لكن كان ذلك عن أمره، فهذا المسجد الذي بناه عمر -رضي الله تعالى عنه-، لم يبنه بيده، وإنما أمر ببنائه، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا} أخبر الله -عز وجل- أنه نفخ فيها، أمر جبريل -عليه الصلاة والسلام-، {فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا}، وهذه الروح المخلوقة نفخنا فيها من روحنا، جبريل -صلى الله عليه وسلم- نفخ فيها بأمر الله -عز وجل-، وجبريل هو روح القدس، {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ} [سورة النحل:١٠٢]، {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} [سورة مريم:١٧]، فأرسل إليها روحه، وهو جبريل -صلى الله عليه وسلم- فنفخ فيها، يعني الروح العظيمة، ويحتمل أن يكون {فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا} أي: أن جبريل نفخ فيها من روحٍ مخلوقة، الروح التي خلقها الله -عز وجل-، فإن الله -تبارك وتعالى- سمى عيسى -صلى الله عليه وسلم- روحاً، وذلك أنه روح مخلوقة، وحينما يضيف ذلك إلى نفسه فإن هذه الإضافة إضافة تشريف؛ لأن ما أضافه الله -عز وجل- إلى نفسه إما أن يكون من الأوصاف القائمة به، كعلم الله، وقدرة الله، أو من الأوصاف غير المعنوية كيد الله ووجه الله، فهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، وإما أن يكون ذلك من باب إضافة أمر لا يقوم به -سبحانه وتعالى-، كبيت الله، وناقة الله، فهذا من إضافة المخلوق إلى خالقه، فالإضافة تكون إضافة تشريف، وهكذا ما يقوم بغيره، كالروح، فعيسى -صلى الله عليه وسلم- هو روح الله بهذا الاعتبار، وهو أيضاً كلمة الله لأنه وجد بالكلمة بـــ: "كن"، من غير أب، هذا هو المعنى، والله -عز وجل- أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ} هما آيتان، يعني مريم آية، وعيسى -صلى الله عليه وسلم- آية، عيسى كان يُحيي الموتى بإذن الله، ويبرئ الأكمه، والأبرص، وتكلم في المهد، فهو آية تدل على قدرة الله -عز وجل-، فالآية بمعنى العلامة، وذلك أن مثل هذه الأشياء من خوارق العادات تدل على قدرة الخالق، وأنه المستحق للعبادة وحده، وأن نواصي الخلق بيده، وأن الأمور جميعاً تحت أمره وقدرته وتصرفه -جل جلاله-، فقال: {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً} ولم يقل: جعلناها وابنها آيتين، يحتمل أن يكون ذلك -والله تعالى أعلم- باعتبار المجموع، أن وجود عيسى -صلى الله عليه وسلم- من امرأة غير متزوجة تحمل وتلد، فالمقصود أن هذه الآية يمكن أن يعبر عنها بأنها آية واحدة، لا ما عدا ذلك من الآيات، كإحيائه للموتى وإبرائه للأكمه والأبرص، {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا} فيما حصل من الحمل والولادة {آيَةً}، رجل وُلد من امرأة غير متزوجة، ليس له أب، الله -عز وجل- خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من آدم، من غير أب ولا

أم، فخلق آدم ابتداءً من تراب وخلق حواء من آدم، وخلق عيسى -صلى الله عليه وسلم- من أم بلا أب، وخلقنا من أم وأب، فهذا يدل على كمال قدرته وعظمته، وأن الأمور بيده -سبحانه وتعالى-، ومن أهل العلم من يقول: {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً} أي: جعلنا كل واحد منهما آية، وقد ذكرنا أمثلة لهذا في توحيد الضمير بعد ذكر شيئين، وأنه أنواع، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا} [سورة الجمعة:١١] ما قال: إليهما، {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ} [سورة التوبة:٦٢] ما قال: يرضوهما، فأحياناً يعود الضمير مفرداً على مذكوريْن، ويكون المراد أحياناً الأمرين، وأحياناً يكون المراد أمراً واحداً، الأول أو الثاني بحسب القرائن، والله -عز وجل- جعل مريم وما جرى لها من الحمل وولادة عيسى -صلى الله عليه وسلم- آية تدل على قدرته الباهرة، وعظمته -جل جلاله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه، وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين، اللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين، وللمستمعين يا رب العالمين، أما بعد:

فيقول المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ}[سورة الأنبياء:٩٢-٩٤].

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: {إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً} يقول: دينكم دين واحد، وقال الحسن البصري في هذه الآية: يبيّن لهم ما يتقون وما يأتون، ثم قال: {إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً} أي: سنتكم سنة واحدة، فقوله: {إِنّ هَذِهِ} إن واسمها، وأمتكم خبر إن، أي هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم، وقوله: {أُمّةً وَاحِدَةً} نصب على الحال؛ ولهذا قال: {وَأَنَاْ رَبّكُمْ فَاعْبُدُونِ} كما قال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً} [سورة المؤمنون:٥١]، إلى قوله: {وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [سورة المؤمنون:٥٢]، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلات ديننا واحد))[1]، يعني: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له، بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً} [سورة المائدة:٤٨].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً} قوله في تفسير هذه الآية: "**دينكم دين واحد**"، وهكذا قول من قال: "**أي سنتكم سنة واحدة**"، والعبارتان بمعنىً واحد، فالسنة والدين والشريعة والملة كل ذلك يرجع إلى شيء واحد، أي أن دين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- واحد، كما ذكر في الحديث: ((نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلات))، ومعنى أولاد عَلات كما فسره النبي -صلى الله عليه وسلم- أي: ((ديننا واحد))، وأولاد العلات هم الذين لهم أب واحد وأمهات شتى، فأصل الدين هو الإسلام الذي بعث به ربنا -تبارك وتعالى- جميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وشرع لهم الشرائع فاختلفت وتنوعت شرائعهم، ولكن أصل الدين واحد، {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}[سورة البقرة:١٣٢]، وفي قوله -تبارك وتعالى- عن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا} [سورة الحج:٧٨] على

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [سورة مريم:١٦]، برقم (٣٢٥٩)، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- بلفظ: ((أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء أخوة لعَلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد)).

أحد القولين: أي أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو الذي سمانا المسلمين، والقول الآخر: أن الله هو الذي سمانا، وقد يكون هذا هو مقتضى القواعد التفسيرية، والأمة تأتي بمعانٍ متعددة، تأتي بمعنى الدين، كما قال النابغة:

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِك ريبةً *** وهل يأثَمَنْ ذو أمّةٍ وهو طائعُ

فهل يأثم يعني هل يتقصد الإثم ذو أمّة، يعني ذو دين، وهو طائع، يعني وهو مختار يتقصد الإساءة والمخالفة والمعصية، يقول: أنا حلفت فلم أترك لنفسك ريبة، ولا يمكن أن أحلف على الكذب.

فهذه بمعنى الدين، وتأتي بمعنى الطائفة المجتمعة على أمر من الأمور، أو أي طائفة مجتمعة، كقوله -تبارك وتعالى- عن موسى -صلى الله عليه وسلم- لما ورد ماء مدين قال: {وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} [سورة القصص:٢٣]، أمة يعني جماعة من الناس، وتأتي بمعنى المدة الزمنية، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} [سورة يوسف:٤٥]، أي الذي نجا من السجن في قصة يوسف -صلى الله عليه وسلم-، وهكذا تأتي بمعنى الرجل الذي اجتمعت فيه الأوصاف الكاملة التي تفرقت في غيره، مثل إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {كَانَ أُمَّةً} [سورة النحل:١٢٠]، ففي كل موضع بحسبه، والمقصود بها هنا الدين.

والخطاب في قوله: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} ليس لهذه الأمة الإسلامية من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وإنما لما ذكر الرسل -عليهم الصلاة والسلام- جميعاً قال هذا، فيكون ذلك راجعاً إلى الجميع، فكل الرسل الذين بعثهم الله -عز وجل- بعثهم بدين واحد، وإن تنوعت فيه الشرائع، بعثهم بالإسلام، {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا} [سورة آل عمران:٦٧]، فاليهودية مبتدعة والنصرانية مبتدعة محدثة، وهذه الأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ} [سورة آل عمران:١٩].

وقوله: {إِنَّ هَذِهِ} "إن واسمها، وأمتكم خبر إن"، فـ "هذه" اسم "إنّ"، وخبرها "أمتكم"، ونصب قوله: {أُمَّةً وَاحِدَةً} على المصدر.

وقوله: {وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ} أي: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مصدق لهم ومكذب، ولهذا قال: {كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ} أي: يوم القيامة، فيُجازَي كلٌّ بحسب عمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولهذا قال: {فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ} أي: قلبه مصدق.

قوله: {وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ} يعني تفرقوا في الدين، فجعلوه كالقطع، هؤلاء أخذوا قطعة، وهؤلاء أخذوا قطعة، وهو دين واحد، وهو الإسلام الذي لا يقبل الله -عزوجل- من أحد ديناً سواه، فهؤلاء قالوا: إنهم يهود، وهؤلاء قالوا: إنهم نصارى، وهؤلاء عبدة وثن، إلى غير ذلك من الديانات الموجودة على وجه الأرض، فبعث الله -عز وجل- الرسل فلم ينتفعوا ببعثتهم، فعلى أحد الأقوال المشهورة في التفسير أن هذا في الأمم الذين بعث الله إليهم الرسل، ومن أهل العلم من يقول: إن المقصود بذلك هم أهل الإشراك الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، {وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ}، {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [سورة المؤمنون:٥٣] في الآية الأخرى.

وابن جرير -رحمه الله- يرى أن قوله: {كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ} عام في الأمم، وأنه لا يختص بالمشركين، وهذا

أقرب، وعبارة ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ بَيۡنَهُمۡ} "أي: **اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب**"، وهذا يوافق قول ابن جرير: إن هذا في سائر الأمم، لكن عبارته أدق من عبارة ابن جرير، وعبارة ابن جرير هي قوله: هذا في كل الأمم، عام في الأمم، فكلامه بهذا المعنى، ولكن الفرق أن ابن كثير هنا عبارته دقيقة يقول: اختلفت الأمم على رسلها، ترى الأصل في العالِم حينما يكتب أنه يزن الحرف، ويقصد كل كلمة قالها، يقول: "**اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب**"، {وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ بَيۡنَهُمۡ} يعني: كلما جاءهم رسول انقسموا فآمنت به طائفة وكفرت به طائفة، هذا لا يخالف قول ابن جرير، لكن هو أدق من ناحيتين، الناحية الأولى: أن ابن جرير -رحمه الله- أطلقَ وعممَ فقال: هذا في الأمم، يعني صارت الأمم إلى أديان شتى، ابن كثير يقول: كلما جاء أمةً رسولٌ انقسموا فيه، فالنتيجة والنهاية هي أن البشرية تفرقت على أديان، يرجع إلى قول ابن جرير من هذه الناحية، من هذا الوجه، لكنه أدق في العبارة، فكلام ابن جرير وجماعة من السلف أن طائفة صاروا يهوداً وطائفة صاروا نصارى، وطائفة صاروا يعبدون الأوثان، ونحو ذلك، هذا لا يخالف قول ابن كثير، فمثلاً لما جاء عيسى -صلى الله عليه وسلم- إلى بني إسرائيل وهم اليهود انقسموا، فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فالتي كفرت صاروا إلى ما يعرف باليهود الآن، والذين آمنوا هم النصارى، وهكذا في سائر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فلما بعث الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- قالت اليهود: نبقى على يهوديتنا، إلا من شاء الله، والنصارى كذلك، وعبدة الأوثان كذلك، وتواصوا وقالوا: {وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ} [سورة ص:٦]، {وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ}، فالشاهد أن هذا القول الذي قاله ابن جرير وما قاله ابن كثير هو موافق له في المآل، وأحسن من قول من خص ذلك بالمشركين الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا لا دليل عليه، ولا دليل على هذا التخصيص، والعلم عند الله -عز وجل-، {وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ} وهذه الآية ذكرها الله في سياق الذم لهؤلاء الذين تقطعوا أمرهم بينهم، كما في الآية الأخرى قوله: {كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ}، وفي المقابل يأمر الله -عز وجل- بالاجتماع والاعتصام بحبله المتين، {وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ} [سورة آل عمران:١٠٣]، وينهى عن مشابهة هؤلاء {وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ} [سورة آل عمران:١٠٥]، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ذكر في اقتضاء الصراط المستقيم ما يقرب من ثمانية عشر وجهاً من وجوه موافقة هذه الأمة لمن قبلها، ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))[٢]، وذكر منها التفرق في الدين، والتنازع، والتناحر، فهذا مما نهى الله -عز وجل- عنه، والواجب الاعتصام بالكتاب والسنة، وجمع القلوب على هذا، والتآلف والمحبة بين المسلمين، وأما أن يبقى الناس أوزاعاً وأشتاتاً متناحرة فالله -عز وجل- يقول: {وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ} [سورة الأنفال:٤٦]، وهذا شيء مشاهد، والله المستعان.

---

٢ - رواه البخاري، من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))، برقم (٧٣٢٠).

ولهذا قال: {فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ} أي: قلبه مصدق وعملَ صالحاً {فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ}، كقوله: {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [سورة الكهف:٣٠] أي: لا يُكفر سعيه وهو عمله بل يُشكر فلا يُظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: {وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ} أي: يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ} هذه تتضمن شروط قبول العمل الثلاثة، وهي: الإخلاص، والمتابعة، وأن يكون ذلك على قاعدة الإيمان، الدين الصحيح –التوحيد الخالص-، فإنه إذا اختل شرط من هذه الشروط فإن العمل لا يقبل، والله -عز وجل- يقول في أول سورة الكهف: {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الكهف:٢]، هذا الشرط الأول، والشرط الثاني في قوله: {الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ} [سورة الإسراء:٩]، العمل الصالح: وهو العمل الخالص الصواب الذي تابع فيه العامل النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلو جاء إنسان على غير عقيدة التوحيد، فلو جاء يهودي أو وثني، أو رجل يعبد القبور، ويذبح لها ويدعوها من دون الله، وعمل عملاً يريد به وجه الله، وتابع فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فجاء وصلى صلاة كما صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يريد بها وجه الله، أو تصدق بصدقة يريد بها وجه الله، فإن الله -تبارك وتعالى- لا يتقبل ذلك العمل منه؛ لأنه اختل شرط وهو الإيمان الصحيح، وقال سبحانه: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [سورة الكهف:١١٠].

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ}، هذا كما قال الله -عز وجل-: {أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى} [سورة آل عمران:١٩٥]، فالأعمال عنده لا تضيع، فهو يجزئ بالحسنات إحساناً ويضاعف ذلك، وهذا من معاني اسمه الشكور، فيشكر العبد بالثواب ويجازيه ويضاعف له ذلك.

{وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ}

[سورة الأنبياء:٩٥-٩٧].

يقول تعالى: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ} قال ابن عباس: وجب، يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة، هكذا صرح به ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقتادة وغير واحد.

هذه الآية ربما يقرؤها الإنسان ولا يستشكل المعنى، لكن نقول: إن هذه الطريقة تولد الإشكالات، وأحياناً لابد من بيان المعنى، فانظر مثلاً في قوله -تبارك وتعالى-: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} ولم يقل: حرام عليهم أنهم يرجعون مثلاً، وإنما قال: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} حرام عليهم الرجوع، فحرام بمعنى ممتنع، فقال: {لاَ يَرْجِعُونَ} ولم يقل: حرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا، حرام عليهم أن يرجعوا، فالممتنع هو الرجوع، وخلاصة الكلام في هذه الآية أن الأقوال فيها ترجع إلى ثلاثة، من أهل العلم من يقول: لا يرجعون إلى الدنيا بعد الإهلاك، فالموعد القيامة، وهذا هو القول الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا، و"لا" هذه في قوله: {أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} بعضهم يفسرها بـــ "وَجَبَ"، مثلما يقول الإنسان أحياناً: حرام عليّ أن تفعل كذا، يريد أن يفعل ويؤكد يقول: حرام عليّ، يعني وجبَ عليّ، فيكون {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ} بمعنى وجب أو واجب، فيكون المعنى وجب أنهم لا يرجعون إلى الدنيا، ومن أهل العلم من يقول بأن الرجوع هنا ليس إلى

الدنيا، وإنما الرجوع إلى الله -تبارك وتعالى-، فيكون المعنى: ممتنع عدم رجوعهم إلينا للجزاء: {وَحَرَامٌ عَلَىَ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}، حرام عليهم أنهم لا يرجعون إلى الله، فسيرجعون إليه ويجازيهم ويحاسبهم على أعمالهم، فحرام بمعنى ممتنع، ويكون المعنى: أي ممتنع عدم رجوعهم إلى الله للجزاء والحساب، بل لابد أن يرجعوا، وعلى هذا تكون "لا" هذه في مكانها، وكثير من أهل العلم من السلف فمن بعدهم يقولون: إن الرجوع المراد به هنا إلى التوبة أو بالتوبة، وتكون "لا" هذه زائدة، أي: زائدة إعراباً، وليست زائدة في المعنى؛ لأنه لا زائد في القرآن؛ ولأن الزيادة حشو، والقرآن منزه عن ذلك، فبعض الذين يقولون: إنها زائدة، يقول: حرام عليهم أن يرجعوا إلى الدنيا، ويقول: "لا" زائدة، وبعضهم يقول: حرام عليهم أن يتوبوا، أن يرجعوا إلى التوبة، فمن قضى الله -عز وجل- بإهلاكهم، وختم على قلوبهم فإنهم لا يرجعون، كما قال الله -عز وجل- عن الكفار في الآخرة حينما يتمنون الرجعة يقول: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ} [سورة الأنعام:٢٨]، فمن قضى الله -عز وجل- إهلاكه واستئصاله وعذابه فإنه لا سبيل إلى رجوعه إلى الله -عز وجل- بالتوبة، وهذا معنى ذكره جماعة من أهل العلم، وممن اختار هذا القول كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وهو مروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وبعضهم يقول: فيها إضمار، وهذا خلاف الأصل، وبعضهم يقول: حرام على قرية حكمنا باستئصالها أو بالختم على قلوب أهلها أن يُتقبل منهم عمل؛ لأنهم لا يتوبون، وهذا في نظري أبعد هذه الأقوال؛ لأن الأصل عدم التقدير، وإذا دار الكلام بين الاستقلال والإضمار فالأصل الاستقلال فيقدم على القول بالإضمار، والآية تحتمل المعاني السابقة، حرام على قرية أنهم لا يرجعون، لا يرجعون إلى الله -عز وجل-، ممتنع عدم رجوعهم إلى الله ليجازيهم، ويحتمل أن يكون المراد {أَنّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} يعني: بالتوبة، ممتنع رجوعهم بالتوبة، ويحتمل أن يكون الامتناع إنما هو برجوعهم إلى الحياة الدنيا من جديد، وأظن أن هذا -والله أعلم- هو أقرب هذه الأقوال.

وقوله: {حَتّىَ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ} قد قدمنا أنهم من سلالة آدم -عليه السلام.

{حَتّىَ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ} يحتمل أن تكون "حتى" هذه هي التي يذكر بعدها كلام، تتحدث وتقول: حتى ذهبنا إلى مكان كذا، وحتى قابلت فلاناً، فالله -عز وجل- ذكر الأمم المهلكة ونحو ذلك، ثم قال: {حَتّىَ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ} فذكر كلاماً بعده، ويحتمل أن تكون "حتى" للغاية، تقول: مشيت حتى مكان كذا، حتى نهاية الطريق، فتكون للغاية، فهنا {حَتّىَ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ} من أهل العلم من يقول: هذه التي يُذكر بعدها كلام، فذكر بعد ذلك خبر يأجوج ومأجوج، وبعضهم يقول: لا، هذه للغاية وما قبلها مرتبط بما بعدها، والعكس، فيكون الكلام {وَحَرَامٌ عَلَىَ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * حَتّىَ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ}، يعني أنهم يستمرون في غيهم وباطلهم حتى نهاية المطاف، حينما تظهر هذه العلامات الكبرى، ويظهر يأجوج ومأجوج، وعند ذلك تتابع أمارات الساعة هذه كالعقد إذا انفرط، ثم تقوم القيامة، {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ}، فخروج يأجوج ومأجوج قريب من القيامة، فيقول: هؤلاء الذين قضينا بإهلاكهم لا يرجعون إلى الله -عز وجل- ولا يتوبون إليه على هذا التفسير، فهم يستمرون في غيهم حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج واقتربت الساعة، فهم باقون على هذا الحال، ولو قيل بأن المعنى أن "حتى" هذه هي التي يذكر بعدها كلام لربما يكون أقرب، لاسيما إذا فسرنا ما قبله بأنهم لا يرجعون إلى الدنيا، فمن مات فات، لا سبيل إلى

رجوعه، والمقصود بقوله: {وَحَرَامٌ عَلَىَ قَرْيَةٍ} أهل القرية، ويمكن أن يقال هذا في الأفراد إلا لأمر خارق، خارج عن الأصل، فمثل ما حصل في قصة قتيل بني إسرائيل لما ضُرب ببعض البقرة، فأحياه الله -عز وجل- وأولئك الذين قص الله خبرهم خرجوا فراراً من الموت فقال لهم الله: {مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ} [سورة البقرة:٢٤٣]، وهكذا أيضاً {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [سورة البقرة:٢٥٩]، فهذه أمور خارقة للعادة خلاف الأصل، فالأصل أن من مات لا سبيل إلى رجوعه، وهذا يُبطل الحكايات التي تسمعونها والقصص: أن شخصاً حفر قبراً ووجد شخصاً وكلمه وقال كذا، وأشياء تذكر في الوعظ أحياناً، لا أساس لها من الصحة، فالذي مات مات لا يرجع مرة ثانية.

قد قدمنا أنهم من سلالة آدم -عليه السلام-، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث، أي أبي الترك، والترك شرذمة منهم، تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين، وقال: {هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} [سورة الكهف:٩٨-٩٩] الآية.

يعني أن الترك شرذمة منهم، الترك على كثرتهم يعتبرون شرذمة من يأجوج ومأجوج؛ لأن يأجوج ومأجوج أمة كبيرة جداً، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقول الله تعالى: يا آدم فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد))، قالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد؟ قال: ((أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألفا، ثم قال: والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة))، فكبرنا فقال: ((أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة))، فكبرنا، فقال: ((أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة))، فكبرنا، فقال: ((ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود))[٣]، فيأجوج ومأجوج ما وجدوا في أمة إلا كثروها، فهم بهذه الدرجة من الكثرة، ولا يفسر هؤلاء بأهل الصين؛ لأن أهل الصين لا يحول بينهم وبين الناس سد، ولا يوجد عندهم ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- من أنهم في كل يوم يخرقون في هذا السد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- استيقظ في يوم مذعوراً يقول: ((ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج هكذا))[٤]، وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه في كل يوم يحاولون نقبه، ثم يقولون: نرجع في اليوم الثاني، فيجدونه رجع كما كان، حتى يقولوا في النهاية -إذا شاء الله أن يُفتح-: إن شاء الله، فعند ذلك يواصلون العمل ويفتح، وهذه الأشياء لا يمكن أن يقال: إنها في الصين؛ لأن الناس يختلطون معهم والأبواب مفتحة، والطرق، والطائرات، والسيارات، والدنيا كلها، وسد الصين هذا ليس هو سد ذي القرنين، والناس يذهبون ويتنزهون عليه، وصار

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، برقم (٣١٧٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار، برقم (٢٢٢).

٤ - رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ويل للعرب من شر قد اقترب)، برقم (٦٦٥٠)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتران الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، برقم (٢٨٨٠)، من حديث زينب بنت جحش -رضي الله عنها-.

معلماً سياحياً يأتيه الناس من أقاصي الدنيا، وكل الأحاديث إذا نظرت إليها، وما يأتي دليل على أن هؤلاء في آخر الزمان، وأنهم يأتون في زمن عيسى -صلى الله عليه وسلم-، والذي يحمل هؤلاء الناس على القول بأن يأجوج ومأجوج هم أهل الصين هو -والله أعلم- أنهم يقولون: الآن كل الكرة الأرضية بالأقمار الصناعية ما بقي منها شبر واحد إلا عُرف، فأين هذه الأمة الضخمة التي تقدر بهذا، كما جاء في الأحاديث وسيأتي أنهم يمرون على النهر فيشربونه، وعلى البحيرة فيشربونها، ويأتي من بعدهم ويقول: قد كان ههنا ماء، هؤلاء أكثر من الصينيين، فنقول جواباً عن هذا: إذا أراد الله أمراً كان، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- لما سئل عن الهدهد، يقال: إنه يرى الماء تحت الأرض، فقيل: هذا الصبي يضع له الفخ ويصطاده، فقال: إذا جاء القدر عمي البصر، فبنو إسرائيل بقوا في التيه هذه المدة الطويلة، حسب موضع الوقف والوصل في الآية، {أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ} [سورة المائدة:٢٦] بقوا مدة طويلة، ومعهم موسى -صلى الله عليه وسلم-، وهم يتحركون ويجولون في أرض سيناء في صحراء ليست ضخمة، ليست واسعة الأطراف بحيث إنهم لو توجهوا من أي اتجاه فإنهم سيقطعونها في أيام يسيرة، ويجلسون نحو أربعين سنة، وقد جاء في الأخبار أنهم يمشون فإذا باتوا في محل وجدوا أنفسهم في المكان الذي مشوا منه، فالله -عز وجل- أراد أن يخفي عليهم هذا، فكان، وتميم الداري -رضي الله تعالى عنه- لما وجد الدجال في جزيرة، سمعت بعض الناس، وكتب أحدهم كتاباً في الدجال، وقال: الآن الأقمار الصناعية، اكتشفوا الجزر، واكتشفوا كل مكان أين الدجال؟ وهذا تكذيب منه للحديث، أراد الله -عز وجل- أن يطلع عليه تميم الداري -رضي الله تعالى عنه-، فكان ما أراد، والإنسان أحياناً يبحث عن نظارته وهو لابس لها، أو يبحث عن قلمه وقد وضعه في أذنه، وأحياناً من يبحث معه لا يتفطن لما يُبحث عنه، فإذا أراد الله -عز وجل- شيئاً كان، والإنسان ضعيف والله يريه ضعفه بأمور كثيرة، والله المستعان.

وقال في هذه الآية الكريمة: {حَتَّىَ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ} أي: يسرعون في المشي إلى الفساد.

قوله: {يَنسِلُونَ} هذه صفة للمشية السريعة، وبعض أئمة اللغة يقول: مثل مشية الذئب، وهؤلاء من كل حدب ينسلون، ينزلون من كل مكان مرتفع، والإنسان ينزل من المكان المرتفع بنوع من الإسراع، فهؤلاء من كل حدب لكثرتهم، من كل مكان مرتفع فتراهم ينزلون مثل الجراد، يمشون بهذه الطريقة التي وصفها الله -عز وجل.

والحَدَب هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري وغيرهم، وهذه صفتهم في حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك {وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [سورة فاطر:١٤] هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السموات والأرض لا إله إلا هو.

وروى ابن جرير عن عبيد الله بن يزيد قال: رأى ابن عباس صبياناً ينزو بعضهم على بعض يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية.

يعني أنهم يخرجون بسرعة في مشيتهم، وكما أخبر الله -عز وجل- أيضاً عن الناس في المحشر، {كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ} [سورة القمر:٧] من كثرتهم، وهذا الجراد المنتشر من كثرته يركب بعضه بعضاً، وإذا انتشر في

مكان يملأه كالفراش، فيأجوج ومأجوج من كل حدب ينسلون لكثرتهم، فهم يسرعون، ينزلون من كل مرتفع، وهي ساعة لطالما انتظروها، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء (١١)

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

اللهم اغفر لشيخنا وللحاضرين وللمستمعين، أما بعد:

فقال المؤلف -رحمه الله-:

الحديث الثالث:

روى الإمام أحمد عن ابن حرملة عن خالته قالت: خطب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب، فقال: ((إنكم تقولون: لا عدو لكم، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج، عراض الوجوه، صغار العيون، صُهب الشّعاف، من كل حدب ينسلون، كأن وجوههم المجان المطرقة))[1] وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو عن خالد بن عبد الله بن حرملة المدلجي، عن خالة له، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فذكره، مثله سواء.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -صلى الله عليه وسلم-: **((وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً))** يعني من بعد عدو **((حتى يأتي يأجوج ومأجوج))**، قال: **((عراض الوجوه))** وهذا واضح **((صغار العيون، صهب الشعاف))** يعني وصف رءوسهم أو شعورهم بحمرة يعلوها سواد **((صهب الشعاف))** بمعنى أن شعورهم ليست سوداء، وإنما بين بين، حمرة يعلوها سواد، وهذه في الغالب ليست أوصاف العرب كما هو معروف.

((كأن وجوههم المجان المطرقة)) المجان يعني التروس؛ لأنها تجنّ الإنسان، يعني تستره وتقيه من النبال، ومن ضرب السيوف، وطعن الرماح.

((المطرقة)) يعني كأنها طبقات، الترس قد يكون من جلد قوي يابس، يوضع فوقه جلد وهكذا حتى يكون مثل الخشب أو مثل المعادن، ولا زال الناس يستعملون هذه الكلمة إلى اليوم، ما تسمعون الناس يقولون: عنده طراقة من كذا؟ من الثياب؟ طراقة من الأقمشة، يعني قد طبق بعضها فوق بعض لكثرتها مثلاً.

وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج))[2] انفرد بإخراجه البخاري[3].

---

[1] - مسند أحمد رقم (٢٢٣٣١)، وقال محققوه: إسناده ضعيف.

[2] - مسند أحمد رقم (١١٢١٩)، وقال محققوه: حديث صحيح.

[3] - صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: {جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس...} رقم (١٥١٦).

وقوله: {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ} [(٩٧) سورة الأنبياء] يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووقعت قال الكافرون: {هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [(٨) سورة القمر] ولهذا قال تعالى: {فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [(٩٧) سورة الأنبياء] أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام {يَا وَيْلَنَا} أي: يقولون: يا ويلنا {قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا} أي: في الدنيا {بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ} يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك.

قوله -صلى الله عليه وسلم-: **((ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج))** هذا قد يشكل عليه الحديث السابق في الريح المؤمنة التي تأخذ أهل الإيمان من تحت آباطهم، فلا يبقى بعد ذلك من أهل الإيمان أحد، يبقى أناس هم شرار الخلق، تقوم عليهم الساعة، يتسافدون كما تتسافد الحمر، فهذا بعدما يذهب أهل الإيمان، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أنه يحج البيت، فقد يكون المراد -والله تعالى أعلم- أن ذلك يكون من هؤلاء قبل أن تأتي هذه الريح الطيبة، يعني بعدما ينتهي يأجوج ومأجوج يحج أهل الإيمان ويعتمرون، وتكون نهايتهم بهذه الريح التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم-، بحيث تقوم الساعة على الذين وصفهم بأنهم يتسافدون كما تتسافد الحمر، وأنهم شرار الخلق، هؤلاء قال فيهم: ((عليهم تقوم الساعة)) فهو مشعر بأنه لا بقاء لأهل الإيمان بعد تلك الريح، وإنما يبقى شرار الناس، ولكن لا يعني هذا أن هذه الريح الطيبة تأتي بعد هلاك يأجوج ومأجوج مباشرة، وإنما يبقون مدة، ويحجون البيت بعد هؤلاء ويعتمرون، ثم في النهاية تأتي هذه الريح، ويموت أهل الإيمان؛ لأن أشراط الساعة الكبرى -كما سبق- كالعقد الذي انفرط في سرعتها.

طلوع الشمس من مغربها: لو تنظرون في الأحاديث الواردة في صحيح مسلم وفي غيره في خروج الدابة، العلماء يستشكلون بعض هذه الأحاديث في التوقيت، حينما ينظرون إليها، يحاولون الجمع بينها، لكن هي متقاربة جداً، بحيث إذا خرجت الشمس من مغربها تخرج الدابة على الناس ضحى، يعني إلى هذا الحد في سرعة هذه العلامات وظهورها، تتابع، ثم بعد ذلك تقوم الساعة.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ} [(٩٧) سورة الأنبياء] قال: يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل أزفت الساعة واقتربت {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ} [(٩٧) سورة الأنبياء] بعض أهل العلم يقول: إن الواو هنا زائدة إعراباً، ويكون قوله: {اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ} [(٩٧) سورة الأنبياء] إذا حذفت الواو هو جواب (إذا) الأولى.

بمعنى يكون الكلام هكذا، قال الله -عز وجل-: {حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون} {اقترب الوعد الحق} أي {حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج} {اقترب الوعد الحق} لأن يأجوج ومأجوج من آخر العلامات الكبرى، فتكون جواباً لـــ(إذا) وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إن جوابها هو قوله تعالى: {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [(٩٧) سورة الأنبياء] وبعضهم يقول: هو مقدر محذوف: "حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج قالوا يا ويلنا" يعني الناس يقولون: يا ويلنا، والله تعالى أعلم.

قال -عز وجل-: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ } [(٩٨-١٠٣) سورة الأنبياء].

قال -رحمه الله-: يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [(٩٨) سورة الأنبياء] **قال ابن عباس: أي: وقودها، يعني كقوله:** {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [(٢٤) سورة البقرة] **وفي رواية عن ابن عباس قال:** {حَصَبُ جَهَنَّمَ} [(٩٨) سورة الأنبياء] **يعني حطب جهنم بالزنجية، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: حطبها، وقال الضحاك: حصب جهنم أي: ما يرمى به فيها، وكذا قال غيره.**

هذه الأقوال متقاربة، وإن كان لا يوجد دليل على أن هذا بالزنجية، والأصل أن هذا بالعربية، لكن قول من قال بأنه حطب جهنم، أو قول البعض بأنه ما يرمى فيها، أو يلقى فيها، كل ذلك متقارب؛ لأن حطب جهنم هو ما توقد به بمعنىً أعم، وهذا الذي مشى عليه بعض أهل اللغة، يقولون: إن معنى الحصب هو ما توقد به النار وتهيج، فالحطب الذي يلقى في النار هو الذي تتقد به، أما نار جهنم -أعاذنا الله وإياكم منها- فإن وقودها الناس والحجارة {حَصَبُ جَهَنَّمَ} [(٩٨) سورة الأنبياء] فهو ما يلقى فيها؛ لأنه إذا عبر عنه بالحطب فمعنى ذلك أنه الوقود لأنهم ليسوا بحطب، وأنت تقول للإنسان أحياناً تحذره من شيء أو كذا تقول: حتى لا تكون حطباً لهذه الفتنة، يعني ما توقد به هذه الفتنة، وقول من قال: ما يلقى فيها أوسع وأوضح في المعنى، لكن من عبر بالحطب هو لا يقصد أنه حطب جهنم، لكن النار التي توقد في الدنيا يقال للحطب الذي توقد به حصب، فنار جهنم لا توقد بالحطب، ولكن يصح أن يقال لمن يلقى فيها وتتقد به ويكون وقوداً لها أنه حطب لها؛ لأن العرب يتوسعون في الكلام في مثل هذا، وإذا أردت أن توسع العبارة تقول: وما يلقى فيها وتتقد به، ما تتوقد به النار هذا هو حصب جهنم {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [(٩٨) سورة الأنبياء] فهم وقودها كما قال الله -عز وجل-: {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [(٢٤) سورة البقرة] دخول هذه الآلهة، إلقاء الآلهة في النار، وهي جمادات لا تشعر، من أي وجه؟ يكون ذلك تبكيتاً لعابديها، هي أحجار، جمادات، هي لا تتعذب بالنار، ولكن هذا فيه زجر وتبكيت لهؤلاء الذين يعبدونها، فيقال: تلقون فيها أنتم وهذه المعبودات.

وقوله: {أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} **أي: داخلون** {لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا} **يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها.**

نعم، وهذا يدل على المعنى الذي ذكرته آنفاً، وهو أن دخول هذه الآلهة للنار من باب التبكيت؛ لأن الله يقول لهم: {لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا} [(٩٩) سورة الأنبياء] فانظروا إلى حالها، وما آلت إليه.

{وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٩٩) سورة الأنبياء] **أي: العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون** {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ} [(١٠٠) سورة الأنبياء] **كما قال تعالى:** {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} [(١٠٦) سورة هود] **والزفير خروج أنفاسهم، والشهيق ولوج أنفاسهم** {وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ} [(١٠٠) سورة الأنبياء].

هذا المشهور في الشهيق والزفير، الشهيق: إدخال النفس بصوت وبقوة، الإنسان الذي يبكي بكاءً مراً، أو بكاءً شديداً، أو نحو ذلك، ويحاول أن يكتم هذا، أو أتعبه البكاء يأخذ النفس بقوة وبصوت، يظهر في الحلق والصدر، والزفير: هو إخراج النفس بقوة أيضاً وبصوت، هذا هو المشهور، ومن أهل العلم من قال -وهذا الذي اختاره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: إن الشهيق مثل أول صوت الحمار، والزفير كآخره، تعرفون صوت الحمار كيف يبدأ؟ وبعد ذلك يتحول، يتغير، وفي آخره يكون بصورة أخرى، فعلى كل حال هكذا قال، ولكن المتبادر أن الشهيق والزفير ما يُعرف، ما يعرفه الناس في البكاء الشديد من جذب النفس بقوة وبصوت، والزفير إخراجه بقوة وبصوت.

على كل حال ما ذكره الشيخ محمد الأمين -رحمه الله- من أن الزفير هو أول صوت الحمار، والشهيق هو آخره يحتمل، لكن هل هذا هو المتبادر؟ المتبادر -والله تعالى أعلم- أن الزفير والشهيق يستعملهما الناس في كلامهم في صوت البكاء ونحو ذلك، أو صوت النفس عموماً، إن كان له صوت يسمع لعلة، فهنا يقول: **{لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ}** [(١٠٦) سورة هود] كما قال تعالى: **{لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ}** [هود: ١٠٦] فالزفير خروج الأنفاس، والشهيق ولوج الأنفاس.

قوله: **{وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ}** [الأنبياء: ١٠٠] بعضهم يفسره فيقول: **{لَا يَسْمَعُونَ}** أي لا يسمع بعضهم بعضاً لشدة الهول الذي هم فيه، وبعضهم يقول: لا يسمع بعضهم زفير وشهيق بعض، وبعضهم يقول: لا يسمعون كلاماً يؤنسهم، لا يسمعون كلاماً طيباً، لا يسمعون إلا الزجر **{قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}**[المؤمنون: ١٠٨] وبعضهم يقول: أهل النار لا يسمعون، وقوله: **{اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}** لا يعارض هذا؛ لأن الله قد يفتح أسماعهم، أو أنهم في بعض الأوقات يسمعون وفي بعضها لا يسمعون، كما أراد الله -عز وجل-، متى ما أراد، فبعض أهل العلم يقول: أصلاً أهل النار لا يسمعون؛ لأن الله -عز وجل- يقول عن الكفار: **{وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا}** [الإسراء: ٩٧] هذا قبل دخولهم النار **{مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ}** [الإسراء: ٩٧].

وهكذا في قوله تعالى: **{وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى}** [طـه: ١٢٤-١٢٦] وقد ذكرت عند الكلام على الآية أن هذا على ظاهره، أنه يحشر يوم القيامة أعمى فعلاً حقيقة، وهكذا أولائك الذين يحشرون على وجوههم، وقد سئل عنها النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبر أن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يحشرهم على وجوههم، فهذا كله على ظاهره، وليس المراد بأنه أعمى عن حجته، فهو ليس له حجة أصلاً، وهكذا في قوله تعالى: **{وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ}** [النمل: ٨٥] فهم لا ينطقون، ولا يسمعون، ولا يبصرون.

وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى} [الأنبياء: ١٠١] قال عكرمة: الرحمة، وقال غيره: السعادة.

على كل حال هذا يبدو -والله أعلم- غير متعارض، الرحمة أو السعادة أو الجنة، فإن الجنة هي رحمة الله -عز وجل- ((أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء)) والسعادة: لا شك أن من سبقت لهم السعادة فهم أهل الجنة، وأما من عبر عنها بأنها الجنة فهذا أوضح، فهو غير محتمل لمعانٍ أُخَر؛ ولهذا الله -عز وجل- يقول: **{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}** [(٢٦) سورة يونس] فالحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم.

{أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠١] لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال تعالى: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]، وقال: {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن: ٦٠] فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم، ونجاهم من العذاب، وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: {أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا} [الأنبياء: ١٠١-١٠٢] أي حريقها في الأجساد.

هو حريقها في الأجساد، الحسيس هو الصوت، صوت الشيء الذي يمر بك قريباً منك، أو نحو ذلك، وهذا يكون حينما تسمع الأصوات بدقة، يعني يكون هدوء، مثلاً في جوف الليل يمكن أن تسمع من يمشي بجوارك، وهو مأخوذ من الحس في أصله؛ ولهذا لا زال الناس يستعملون هذا في الإحراق في النار ببعض صوره يسمونه حسيساً، الآن حينما توضع رءوس الغنم أو نحو ذلك على النار، هذا ماذا يسمى إلى اليوم؟ يسمى حسحسة، أليس كذلك؟ يقال له هذا، فحينما تقلبها على النار تسمع أصواتاً معينة، أصوات وهي تأكل الشعور، أصوات بعض السوائل فيها تحترق، وما إلى ذلك حتى تصير في حال من اليبوسة، فالنار لها صوت وهي تأكل هذه الأشياء {لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا} هذا معنى ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، قال: أي حريقها في الأجساد، صوت احتراق الأجساد، فهذا صوت مفزع، فلا يكون لأهل الجنة راحة ولذة ونعيم وهم يسمعون هذه الأصوات، فستفزعهم قطعاً.

الإنسان إذا رأى النار في الدنيا يفزع، فكيف بنار جهنم التي يلقى فيها الشمس والقمر، شيء هائل، الإنسان أضعف من هذا، الإنسان قد لا يستطيع أن ينظر إلى منحدر، أو من علو شاهق، لا يستطيع أن ينظر إلى الأرض أحياناً، فكيف بالنار التي يلقى الشيء فيها، ويصل بعد سبعين خريفاً إلى قعرها؟!، لو لم يكن فيها نار لصارت مفزعة لأجل الإلقاء فقط، أو النظر، فكيف إذا كانت تضطرم من النار بصورة دائمة لا تنقطع؟!.

وقوله: {وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ} [الأنبياء: ١٠٢] فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب، يقال: نزلت استثناءً من المعبودين، وخرج منهم عزير والمسيح، كما قال حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [الأنبياء: ٩٨] ثم استثنى فقال: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠١] فيقال: هم الملائكة وعيسى، ونحو ذلك مما يُعبد من دون الله -عز وجل-، وكذا قال عكرمة والحسن وابن جريج.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار -رحمه الله- في كتاب السيرة: وجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المسجد غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى أفحمه، وتلا عليه وعليهم {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} إلى قوله: {وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ} [الأنبياء: ١٠٠] ثم قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأقبل عبد الله بن الزبعرَى السهمي حتى جلس معهم، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن

الزبعرَى: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً ولا قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً كل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذُكر ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشيطان، ومن أمرهم بعبادته)) وأنزل الله {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ} [الأنبياء: ١٠١- ١٠٢] أي: عيسى وعزير ومن عُبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله، ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} [الأنبياء: ٢٦] إلى قوله: {وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٢٩] ونزل فيما ذُكر من أمر عيسى وأنه يُعبد من دون الله، وعجَب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا} [الزخرف: ٥٧-٦١] أي: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: {فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [الزخرف: ٦١] وهذا الذي قاله ابن الزبعرى خطأ كبير؛ لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل؛ ليكون ذلك تقريعاً وتوبيخاً لعابديها؛ ولهذا قال: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [الأنبياء: ٩٨] فكيف يورد على هذا المسيح وعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرضَ بعبادة من عبده؟!.

على كل حال هذه الراوية من طريق محمد بن إسحاق، وهي لا تصح من جهة الإسناد، ولكن الروايات التي وردت في سبب النزول بهذا المعنى كثيرة، وهذه الروايات متفاوتة، لكن مجموع هذه الروايات يقوي بعضه بعضاً، فأصل ذلك صحيح، ويصح أن يقال: إن سبب النزول هو هذا الإيراد والاحتجاج الذي حصل، والاعتراض على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فنزلت الآية بسبب ذلك، وإن كانت آحاد هذه الروايات قد لا تصح، وإنما تعتضد بغيرها، والكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا في الرد عليهم يتضمن أمرين، أما الرواية فإن فيها الاستثناء الواضح الصريح {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠١] لكن ما ذكره بعده، قال: لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل، في هذين السطرين جوابان، الجواب الأول:

أن هذا خطاب لأهل مكة فلا يرِد عليه مَن عبَد المسيح ومَن عبَدَ العُزير، فلا يقول قائل منهم: إذاً نحن مع المسيح ومع العزير، لكن هذا الجواب يرد عليه إيراد وهو أن من العرب من عبد الملائكة، وجاء هذا في بعض الروايات أنهم قالوا: عبدنا الملائكة، فهل الملائكة معنا؟

والجواب الثاني المضمن في كلام ابن كثير -رحمه الله-: أن (ما) لما لا يعقل {إِنَّكُمْ وَمَا} والملائكة والعزير وعيسى -عليهم الصلاة والسلام- هؤلاء ممن يعقل، فذلك لا يتناولهم، وإنما يتناول هذه المعبودات التي عبدها المشركون من الأوثان ونحو ذلك، وهذا حاصل كلام ابن كثير -رحمه الله-، فصارت هذه هي الأجوبة المضمنة في كلامه، ولم يكن ذلك لابن كثير وحده، بل ذكر جماعة من أهل العلم هذه الردود والأجوبة على المشركين، منهم الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، لكن يكفي أن يقال: إن المقصود كل ما عبد من دون الله -عز وجل- وهو راضٍ بهذه العبادة، سواء أمر بها أو رضي، فيدخل فيه من عُبد من البشر، البشر الذين يُقدَّسون من المقبورين أو من الأحياء، إذا كانوا يرضون بهذا، فالشاهد أن هذا هو المراد، والعلم عند الله -عز وجل.

وقوله: {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ} [الأنبياء: ١٠٣] قيل: المراد بذلك الموت، رواه عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة عن عطاء، وقيل: المراد بالفزع الأكبر النفخة في الصور، قاله العوفي عن ابن عباس. وأبو سنان سعيد بن سنان الشيباني، واختاره ابن جرير في تفسيره.

على كل حال هذا هو الأقرب وليس الموت، الموت ليس هو الفزع الأكبر، إنما الفزع الأكبر ما يكون بالنفخ في الصور، والعلماء -رحمهم الله- مختلفون في عدد المرات التي ينفخ فيها في الصور، فالمشهور أنهما نفختان، نفخة الصعق {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ} [الزمر: ٦٨] ونفخة البعث، بعض العلماء يقول: هما نفختان، وبعض العلماء يقول: هناك نفخة ثالثة هي المشار إليها بقوله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ} فهذه يسمونها نفخة الفزع.

فعلى كل حال هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ} الفزع الأكبر: هو النفخ في الصور، وهذا ما يدل عليه القرآن كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ} [النمل: ٨٧] وكما في قوله: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ} [سبأ: ٥١] وهكذا في قوله: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} [النمل: ٨٩] فهذا كله بعد النفخ في الصور.

وقوله: {وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: {هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} أي: فأملوا ما يسركم.

نعم وهذا يدل عليه أيضاً قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ} [فصلت: ٣٢] وهكذا في قوله تعالى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: ٣٢] فهذا كله يدل على أن ذلك يكون في الآخرة، مع أن أهل الإيمان لهم نصيب من هذا المعنى في الدنيا؛ لأن الله -عز وجل- يقول: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢] فإن المشركين الذين عبدوا الكواكب، وخاصموا إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وخوفوه من آلهتهم، قال لهم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ

عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٨١] قال الله: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢] ثم قال: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [الأنعام: ٨٣] فمن أهل العلم -كما سبق في الكلام على قواعد التفسير- من يقول: إن هذا من كلام الله -عز وجل- فصل بين الفريقين {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} وبعضهم يقول: هذا من تمام كلام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وأياً ما كان فهو قول حق، فهم لما خوفوه من آلهتهم أن تُخبله، أو أن تقتله، أو أن تلحق به ضرراً قال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} فهذا الأمن حاصل في الدنيا، وحاصل في الآخرة، فلهم من الأمن والاهتداء على قدر ما عندهم من الإيمان الموصوف بهذه الصفة {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} وسبق الكلام على هذا عند قاعدة: الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، وعند قاعدة أخرى وهي: الكلام على الموصول لفظاً والمفصول معنىً، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنبياء(١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

قال -عز وجل-: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [سورة الأنبياء:١٠٤].

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}، كما قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [سورة الزمر:٦٧]، **وقد روى البخاري عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السموات بيمينه))**[1]**، انفرد به البخاري -رحمه الله.**

وقوله: {كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} المراد بالسجل الكتاب، وقال السدي في هذه الآية: السجل ملَك موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل، فطواه ورفعه إلى يوم القيامة، والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة، والعوفي عنه، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب، أي: على الكتاب بمعنى المكتوب، كقوله: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} [سورة الصافات:١٠٣]: **أي على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}** السجل أحسن ما يفسر به هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو الكتاب، خلافاً لمن قال بأن السجل ملك من الملائكة، وأنه يطوي صحيفة الإنسان بعد موته، فهذا لا دليل عليه، وبهذه المناسبة أنبه إلى أن ما يتداوله كثير من الناس في نهاية العام يقولون: طويت صحيفة عام، وفتحت صحيفة جديدة وما أشبه ذلك لا أعلم دليلاً على أنه تطوى صحيفة الإنسان في نهاية العام، وبعضهم يقول: السجل هو كاتب كان يكتب لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- الوحي، وهذا لا أصل له، وإنما يقال: السجل هو الكتاب، كطي الكتاب للكتب، وفي القراءة الأخرى "الكتاب"، كله بمعنى واحد يعني المكتوب، فهذه الكتابة التي تكون في الصحيفة، يقال لها: كتاب، ويقال لها: كتب، باعتبار مجموع ما كتب فيها، **{كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}** كطي الكاتب لما كتب أو للصحيفة التي كتب فيها، فهذه الكتابة يقال لها: الكتاب، ويقال لها: الكتب، فيكون المعنى هكذا كطي الصحيفة لما كتب فيها، ولهذا قال: المراد بالسجل الكتاب، وقال: **والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، واختاره ابن جرير لأنه**

---

١ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [سورة ص:٧٥]، برقم (٦٩٧٧).

المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}: أي على هذا الكتاب بمعنى المكتوب؛ لأن الكتاب مصدر، والمصدر يأتي بمعنى الفاعل، ويأتي بمعنى المفعول، كتاب بمعنى مكتوب، وقال: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} يعني: على الجبين، {كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} أي: على الكتب، فاللام بمعنى "على"، {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} على الجبين، هذا بتضمين الحرف معنى الحرف، والله أعلم.

وقوله: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} يعني: هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم. وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله الذي لا يُخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك، ولهذا قال: {إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بموعظة: فقال: ((إنكم محشورون إلى الله -عز وجل- حفاة عراةً غُرْلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا، إنا كنا فاعلين))[٢]**، وذكر تمام الحديث، أخرجاه في الصحيحين، وذكره البخاري عند هذه الآية في كتابه.**

من أهل العلم من يقول: إن المراد بقوله -تبارك وتعالى-: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} أن السماء لما تطوى ويحصل ما يحصل كما قال الله -عز وجل-: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [سورة إبراهيم:٨]، قالوا: إن الإعادة {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} معناها إعادة هذا الخلق بعد الطي، والمشهور أن هذه الآية إنما هي في إعادة الخلق من جديد بعد أن تفرقت أبعاضهم وأجسادهم في التراب، وهي القضية التي كان يكابر بها المشركون، وهي من القضايا الكبار التي جاء القرآن لتقريرها، وجادل المنكرين بالعبث، وهذا له طرق كثيرة ففي سورة البقرة وحدها نحو خمسة مواضع فيها طريق واحد فقط، وهو إعادة الموتى الذين أماتهم الله -عز وجل- من جديد، كما في قصة قتيل بني إسرائيل {اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا} [سورة البقرة:٧٣]، وهكذا الذي مر على قرية، وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- حينما قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} [سورة البقرة:٢٦٠]، وهذا نوع واحد من الأنواع التي يذكرها القرآن لتقرير الإعادة والبعث من جديد، وأن من مات يحييه الله -تبارك وتعالى- ثانية، وهناك أشياء أخرى من طرق الاستدلال، مثل الشجر الأخضر كيف يخرج الله -عز وجل- منه النار، والخضرة والرطوبة لا تتناسب مع النار والإحراق والحرارة وما أشبه ذلك، وهكذا خلق السماوات والأرض، والأجرام العظيمة، {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم} [سورة يس:٨١]، فالمشهور في هذه الآية: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} أن الله يحتج على البعث بابتداء الخلق، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم:٢٧]، و{أَهْوَنُ} هنا ليست على بابها، وإنما المقصود بها مطلق الاتصاف، يعني وهو هين عليه؛ لأنه سوى بالنسبة لله -عز وجل-، وذكرنا قاعدة أخرى، وذكرت هذا المثال عليها وهي أن الخطاب في القرآن قد يرد مراعياً فيه حال السامع، فهو أهون عليه هذا بالنسبة إليكم، فجرى الخطاب على تصور السامعين، أن الإعادة ثانياً أسهل من الابتداء، والخلق لأول مرة، فهذا هو المشهور، هذه دليل على قدرة الله -عز وجل- على البعث، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر هذه الآية على المنبر كما في هذا الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد، وهو حديث

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [سورة النساء:١٢٥]، برقم (٣١٧١)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٦٠)، وأحمد في المسند، برقم (٢٠٩٦).

ثابت صحيح: ((إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً)) يعني: غير مختونين، ثم قرأ هذه الآية: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أوردها في هذا السياق، بمعنى أن الإنسان حينما يبعث يبعث كما ولدته أمه، إن كان فقد عضواً في حياته يرجع إليه، ليس عليه ثياب، ولا معه متاع ولا غير ذلك، {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} فالآية في ظاهرها وعمومها تشمل هذا المعنى، وإن كان قد يتبادر إلى الذهن أنها سيقت أولاً لتقرير مسألة البعث، ولذلك ذكرت في القواعد قاعدة وهي: أن الآية قد ترد في سياق فتدل على معنى، ولكنها قد تحمل على غيره مراعاةً لعموم اللفظ، وإن كان السياق في معنى معين، مثل {لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [سورة التوبة:١٠٨]، سياق هذه الآية في مسجد قباء، لكن لما اختصم الرجل العوفي والآخر الخدري، العوفي يقول: مسجد قباء، والخدري يقول: مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: ((هو مسجدي هذا))[٣]، مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن لا ينفي ذلك عن مسجد قباء، ولكن ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- الأحق، وهكذا في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أيقظ علياً وفاطمة -رضي الله تعالى عنهما-: ((ألا تصليان؟)) يعني من الليل، فقال علي -رضي الله تعالى عنه-: إن أرواحنا بيد الله متى ما شاء أن يبعثها بعثها، فرجع -صلى الله عليه وسلم- كالمغضب يلطخ فخذه ويقول: ((وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [سورة الكهف:٥٤]))[٤]، مع أن هذه الآية جاءت في الكافرين والمجادلين في الوحدانية والنبوة، والبعث، والوحي، واستدل بها النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا المقام، أخذاً من عموم اللفظ، وإن كان السياق في معنى، فهنا هذه الآية السياق في قضية تقرير البعث، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكرها في صفة حشرهم، فالعموم يشمل هذا جميعاً، وهذا يفيد في مسألة توسيع المعاني، والعلم عند الله -عز وجل.

قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء:١٠٥-١٠٧].

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: {إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة الأعراف:١٢٨]، وقال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [سورة غافر:٥١]، وقال: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ} [سورة النور:٥٥]، وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، قال الأعمش: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، فقال الزبور: التوراة والإنجيل،

---

٣ - رواه النسائي، كتاب المساجد، باب ذكر المسجد الذي أسس على التقوى، برقم (٦٩٧)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٩)، وأحمد في المسند، برقم (١١٨٤٦)، وقال محققوه: حديث صحيح.

٤ - رواه البخاري، كتاب التهجد، باب تحريض النبي -صلى الله عليه وسلم- على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، برقم (١٠٧٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليلة أجمع حتى أصبح، برقم (٧٧٥).

والقرآن، وقال مجاهد: الزبور الكتاب، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد: الزبور: الذي أنزل على داود، والذكر التوراة، وقال مجاهد: الزبور الكتب بعد الذكر، والذكر أم الكتاب عند الله، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول، وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ.

وقال مجاهد عن ابن عباس {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} قال: أرض الجنة، وكذا قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري -رحمهم الله تعالى.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، ذكر الحافظ هنا جملة من الأقوال، سعيد بن جبير يقول: الزبور: التوراة والإنجيل والقرآن. يعني جعلها جنس الكتاب، التوراة والإنجيل والقرآن، ولو قيل له: وزبور داود -صلى الله عليه وسلم-، فقد لا يقول: لا؛ لأن المقصود جنس الكتب فهذا للتمثيل فقط، التوراة والزبور والقرآن، وقال مجاهد: الزبور: الكتاب، فهذا أعم في العبارة، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد: الزبور الذي أنزل على داود، بخصوصه، {وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا} [سورة الإسراء:٥٥]، يقول: والذكر التوراة، الزبور من بعد الذكر: يعني أعطي داود الزبور بعد التوراة التي أعطيت لموسى، فموسى -صلى الله عليه وسلم- هو كبير أنبياء بني إسرائيل -عليهم الصلاة والسلام-، وكتابه هو أعظم الكتب التي نزلت عليهم، يقول: والذكر أم الكتاب عند الله، يعني اللوح المحفوظ، يقول: **قال مجاهد: الزبور الكتب**، يعني بعد الذكر، يعني والذكر أم الكتاب عند الله -عز وجل-، يعني اللوح المحفوظ، الزبور الكتب يعني جنس الكتب، كما قال الله -عز وجل-: {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ} [سورة آل عمران: ١٨٤]، يعني الكتب، {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ} يعني في الكتاب، فالزبر في الأصل هو الكتب، الزبر الكتب، يقال: زبرت يعني كتبت، ولا يختص هذا بكتاب داود -صلى الله عليه وسلم-، فيصح أن يطلق على كل كتاب أنه زبور، أي: مزبور، بمعني مكتوب، فالزبر هو الكتابة، أو الكتب، وفي قراءة حمزة وهي قراءة متواترة بضم الزاي {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، فهذه قطعاً ليس المراد بها كتاب داود -صلى الله عليه وسلم- بخصوصه وإنما عموم الكتب، والقراءات يفسر بعضها بعضاً إذا كان معناها واحداً، كما أن القراءة الأحادية تفسر المتواترة، لكن هنا متواترة تفسر متواترة، فقوله: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ} يحتمل أنه خصوص كتاب داود -صلى الله عليه وسلم-، ويحتمل أنه جنس الكتب، لكن القراءة الثانية {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ} فيدخل في الزبر التوراة وصحف إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- والقرآن والإنجيل والزبور، {مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، ويكون المقصود بالذكر هو اللوح المحفوظ، وهذا هو الأرجح والأقوى في تفسير هذه الآية، -والله تعالى أعلم-، وهو اختيار المحققين من المفسرين، وقال به كبير المفسرين ابن جرير، واختار هذا القول ابن القيم، ورجحه من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، فيكون الزبور مفسراً بالزبر -قراءة حمزة-، والمقصود جنس الكتب، أن الله كتب في الكتب التي أنزلها على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كتب من بعد ما كتب في اللوح المحفوظ {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، الذكر هو اللوح المحفوظ، يقول: **وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ**، وابن جرير -رحمه الله- قال بأن الذكر هو اللوح المحفوظ، واحتج له بأشياء

منها أن دخول "ال" للدلالة على معهود، {مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، فحينما دخلت "ال" فهي عهدية، ما هو المعهود إذا قيل: الذكر، {مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}؟ اللوح المحفوظ، فهو شيء معهود، وإلا فكل كتاب أنزله فهو ذكر، ولهذا يقول ابن جرير: إن صحف إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- كانت قبل التوراة فلماذا لا يقال بأن الله كتب في الزبور من بعد الذكر؟ ولماذا يقال: التوراة، لماذا لا يقال: صحف إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فإنها قبلها، فهؤلاء العلماء رجحوا أن الذكر هو اللوح المحفوظ.

وقوله -تبارك وتعالى-: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} قال: أرض الجنة، قبل أن أدخل في هذه المسألة انظروا إلى عبارة ابن كثير -رحمه الله-، وهي دقيقة جداً، وهذا من مزايا هذا الكتاب، يقول: **يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة**، وكثيراً ما يعبر ابن كثير بهذه العبارات الدقيقة، لكن قد لا يعرف قدرها من لم يطلع على كلام أهل العلم في هذا الموضع، والاختلاف الواقع فيه، فعبارة ابن كثير هذه عبارة جامعة، جمع فيها بين أقوال السلف، وهذا مما يميز هذا الكتاب، ويجعله بهذه المنزلة، فكتاب ابن كثير -رحمه الله- لا يعوض عنه غيره، أبداً، كثير من الكتب الآثار الموجودة فيها موجودة في التي قبلها، إن كانت من كتب المأثور، وكثير من الكتب التي تعنى بالجوانب البلاغية أو بالأحكام أو نحو ذلك فيها كلام مكرر في كتب قبلها، لكن هذا الكتاب لا يعوض عنه غيره، من أجلّ الكتب فعلاً، فانظر إلى عبارته، وانظر إلى عبارات السلف ماذا قال: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} قال: أرض الجنة هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، أرض الجنة، وهذا هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير أرض الجنة، باعتبار أن الكافرين قد يكون لهم ظهور، وأن الصالحين إنما يكون جزاؤهم عند الله -عز وجل- في الجنة، وهكذا يحتجون بقوله -تبارك وتعالى- عن أهل الجنة إذا دخلوها: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ} [سورة الزمر:٧٤]، قالوا: الأرض هي الجنة، فهذه تفسر هذا، {أَنَّ الْأَرْضَ} هي أرض الجنة، {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ}، وهذا التفسير يشهد له القرآن كما ترون، ومن حيث النظر قالوا ما ذكرتُ من أن الصالحين جزاؤهم على الله -عز وجل- في الآخرة، أما في الدنيا فقد يحصل لهم الفقر والضيق والأذى، والقتل، {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ} [سورة آل عمران:١٤٦]، وفي هذه القراءة المتواترة {قُتل معه ربيون كثير} أي جماعات كثيرة، فابن جرير حملها على هذا المعنى أرض الجنة، وهذا قال به جماعة من السلف، كأبي العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي وأبي صالح، والربيع بن أنس، والثوري، كل هؤلاء قالوا: أرض الجنة، لهذين الاعتبارين؛ دليل من المنقول، ودليل من النظر، ولكن القول الآخر قال به طائفة كثيرة من أهل العلم، بل نسبه ابن القيم -رحمه الله- إلى أكثر المفسرين، وهذا يحتاج إلى تأمل، لكن قال بأن المقصود بالأرض أرض الكافرين، واستدل بآيات من القرآن، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا} [سورة الأحزاب:٢٧]، وهكذا {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} [سورة النور:٥٥]، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ

وَعِيدِ} [سورة إبراهيم:١٤]، وهكذا في قول موسى -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}، وفي قوله: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [سورة الأعراف:١٣٧]، فقالوا: هذه في الدنيا، وعبارة ابن كثير السابقة حملها على ماذا؟ تأملوها وانظروا فيها، حملها على المعنيين، أن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض أرض الدنيا والأرض في الجنة، فليس العبرة بوقت يحصل فيه هزيمة أو ضيق لأهل الإيمان، وإنما العبرة بالعواقب والنهايات، ولهذا لما قال الله -عز وجل- في حق عيسى -صلى الله عليه وسلم-: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [سورة آل عمران:٥٥]، لم يكن للنصارى ظهور، إلا ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم- فصار الظهور لأهل الإيمان، أهل التوحيد، وإلا فإن الذين اتبعوا عيسى -صلى الله عليه وسلم- من أهل التوحيد كانوا قلة مستضعفة، ودخل قسطنطين في النصرانية كما هو معلوم وجرها إلى الوثنية، وتسلطوا كما حصل في المجمع الذي أقروا فيه التثليث، تسلطوا على أهل التوحيد وصاروا يقتلونهم ويستضعفونهم، وصار لهؤلاء النصارى ظهور على اليهود، {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} فبعض أهل العلم كابن القيم يقول: المقصود بهم النصارى، ظهروا على اليهود فأذلوهم وكانوا ينادون عليهم في ممالك الروم حيناً بعد حين، ويقتلون في تلك الأمصار، يقتلون اليهود، فابن القيم يقول: من كان له شائبة في اتباع المسيح أولى ممن كفر به بالكلية، يعني اليهود، فيرى أنها في النصارى، ولكن هذا يشكل عليه بعض الأمور التي أشرت إليها، والأقرب أن ذلك كان ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، فالعبرة بالعواقب، وإلا ففي الآية السابقة {وكأين من نبي قُتل} إذا وقفنا هنا فالنبي قد يقتل، والمقتول قد يقال: إنه مغلوب {فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ} [سورة النساء:٧٤]؛ لأن الله قابل الغلبة بالقتل، فالمقتول مغلوب، قد يقول قائل هذا، ولكن إذا جمعت النصوص فإن العبرة بالعواقب والنهايات، ليست العبرة بضعف البدايات وإنما بكمال النهايات، فهنا هذه الآيات يحتج بها أمثال ابن القيم -رحمه الله-، على أن الأرض أرض الدنيا، وابن كثير في ظاهر كلامه جمع بين المعنيين، وهذا الذي ذهب إليه الشنقيطي، وهو من أحسن ما يقال -والله أعلم- في تفسير الآية، {إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ} [سورة الأعراف:١٢٨]، فدل القرآن على أنها الجنة، {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ} [سورة الزمر:٧٤]، وأن الأرض أيضاً في الدنيا {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ} [سورة الأحزاب:٢٧]، {وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ}، وما شابه ذلك، فالآية قد تحتمل معنيين يشهد لكل واحد منهما قرآن، فتحمل على هذا وهذا، ما لم يوجد دليل يمنع من ذلك، أي دليل يوجب حملها على أحد هذه المعاني، ما عندنا دليل، هذا يشهد له قرآن وهذا يشهد له قرآن، فنحملها على الجميع، هذا مقتضى القواعد العلمية، والله تعالى أعلم.